كريم مروة القلق والمقلق

د. فيصل دراج
باحث وناقد (فلسطين)

الحديث عن كريم مروة حديث عن القلق والإقلاق الفكريين، وحديث عن هوية، لا تستمر في الحياة إلا إذا تجدد، فكرياً، المنتمون إليها.

منذ منتصف السبعينيات الماضية، وما تلاها، كتب كريم في مجلة «الطريق» الراحلة عن أزمة حركة التحرر الوطني العربية. وكتب، بعد سقوط التجربة الإشتراكية، عن التجدد الفكري وحوار الأيديولجيات، والحوار المحتمل بين العلمانيين وغيرهم، ووصل إلى اجتهاد مضطرب، قصّر المسافة بين الإشتراكية والليبرالية. كان يقول في مسعاه: أنا أفكر إذن فأنا موجود، وأنا أقترح فأنا موجود، وأنا أفكر وأقترح من وجهة نظر هويتي، هوية اليسار.

يستأنف في كتابه الجديد «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي» ما بدأ به منذ عقود. ويستأنف إقلاقنا، متفائلاً، في زمن عربي تخفف من الحركة والتنفس. ربما هذا دوره، فقد كان حزبياً لعهد طويل، والحزبيون متفائلون بطبعهم. غير أنه وهو يطرح، متفائلاً، ما يقترحه لا تغيب عنه صعوبة الطريق. ولهذا قال: «نحو»، مشيراً إلى بداية مقترحة، لايعلم نهايتها إلا الله. ولهذا أيضاً عهد، في كتابه، إلى اليسار المبشر به بمهمة «بناء الدولة»، التي تحتاج إلى يسار بصيغة الجمع، وإلى يمين ويسار، وإلى يمين بصيغة الجمع أيضاً.

ومع أنه يدعو إلى نهضة اليسار فهو يدعو، ضمنياً، إلى نهضة اليمين، إذ لا يسار

بلا يمين، ولا يسار ولا يمين، وهما فكرتان سياسيتان، إلا بفضاء سياسي ديمقراطي لا وجود له في العالم العربي. وقد يقال إن اليمين موجود. وهذا القول، بالمعنى السياسي، ليس صحيحا. فالسلطات العربية لا تقبل بالسياسة ولا تمارسها، منذ أن طردت مبدأ الهيمنة بمبدأ القمع، والجماعات المتعصبة، التي «تحتكر الإيمان»، ترمي بالسياسة خارجاً، منذ أن قرر المؤمن، وهو فكرة مجردة، أن يطرد فكرة «المواطن» والمجتمع.

يبدأ مروة من نهضة اليسار التي تتضمن، منطقياً، نهضة اليمين، ويعطف عليهما فكرة بناء الدولة، داعياً إلى الحداثة الإجتماعية، التي تتضمن الديمقراطية والسياسة والمواطنة ودولة القانون والالتزام بقضية فلسطين، التي تعبّر عن العجز العربي قبل أن تحيل على الضياع الفلسطيني. وإذا كان في الدعوة إلى نهوض اليسار وضوح مجزوء، فإن الربط بين توليد اليسار المنشود وبناء الدولة العربية المنشودة فيه من الألغاز شيء كثير.

هنا يبدو كريم مروة قلقاً ومقلقاً، وهنا يلتحف بفضيلتين كريمتين، ويتطلع إلى حلول، ممكنة ربما، ومؤجلة كثيراً على الأرجح. فهو قلق يتحدث عما يجب أن يكون، وهو مقلق في طرح الأسئلة: كيف نستولد السياسة من مجتمع عربي أبوي طارد للسياسة، وكيف يخلق يسار في مجتمع ما قبل- حداثي، وكيف تنجو فلسطين من «سطوة» العجز العربي وبربرية الاحتلال الصهيوني؟ تحيل هذه الأسئلة على رهان ما، وعلى إرادات ما، وعلى مستقبل ما قد يأتي وقد لا يأتي.

لازمت فكرة الرهان الإيطالي ميكيافيللي حين سأل: كيف يمكن توليد إمارة جديدة من إمارة غائبة؟ ولازمت طه حسين حين سأل كيف يمكن توليد مجتمع تظلله المعرفة من مجتمع تكتسحه الأمية وتسوسه سياسة فاسدة؟ نجح الأول وأخفق الثاني وبقيت فكرة الرهان، التي تمسك بها رومانسيون قدامى وجدد،

اعتقدوا أن «مبدأ الأمل» يروض الحاضر والمستقبل معاً. ولهذا لا يزال كريم مروة، كما غيره من النهضويين العرب، يقتفي آثار طه حسين، وإن أخذت الخطى المتعبة،هذه المرة، صيغة اليسار، لا صيغة النهضة، وهما متماثلتان على أية حال.

وسؤال مروة هو: هوية اليسار، التي تختلف فيها الفكرة عن التطبيق. فللأفكار الممتدة من عبد الرحمن الكواكبي إلى غرامشي، ومن فرح أنطون إلى مهدي عامل، فضاؤها المجرد الخاص، وللتطبيق حيز آخر يتضمن الشرف والمعاناة والإنحراف والإنحدار أيضاً.

قد يكون في حديث مروة ما يدفع إلى طرح أسئلة ثلاث: متى كان اليسار العربي، في عمله السياسي، يسارياً، ومتى كان هذا اليسار نفسه، في العمل السياسي، يمينياً. ما الذي يمكن استثنافه من تاريخ اليسار الذي وقع في أكثر من خطأ، وقدم مساهمة واسعة في الثقافة وتحديث الثقافة العربية؟ وثالث الأسئلة هو: ما هو شكل اليسار المقترح اليوم، في سياق عربي قطع كلياً مع السياق السابق الذي أعطى ظاهرة حداثية منها ولادة اليسار العربي؟

مهما تكن الإجابة فإن وجود اليسار العربي كان ضرورة في الماضي، ولا يزال ضرورياً لمستقبل العالم العربي، رغم دعاة الإستثنائية العربية، الذين يضعون المجتمعات العربية خارج التاريخ.

اليسار، في التحديد الأخير، هو النقد الوطني البناء من وجهة نظر الحداثة الكونية والتحرر الوطني، والدفاع عن فلسطين من دون أوهام، وهوية اليسار من تنظيم النقد الجماعي، الذي يعثر، بعد زمن، على أشكال الحزبية الملائمة.

كريم مروة إنسان موقف، ومثقف قضية، يدافع عن أفكاره الثابتة بأشكال متغيرة، ويسأل ويسائل غيره، مدفوعاً بصدى من الماضي يقول : ما العمل؟